## الفصل الحادي والعشرون

# يقظة القلب

**سكرات الغفلة:**

قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١-٣]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢].

أي أخي، هل تصدق أنك ستموت؟! هل تعتقد أن روحك سوف تفارق جسدك وسوف تترك كل ما تملك؟! هل تؤمن أن الله سوف يحاسبك يوم القيامة عن كل ما قدمت يداك في دنياك؟! إن حال كثير من الناس في هذه الأيام يكاد يُكَذِّبُ بكل هذا، فترى فيه الغفلة المسيطرة، واللهو المستحكم، والسهو الغالب، فلا يصلي إلا في المناسبات، وإن صلى فصلاته آلية لا روح فيها قد سيطرت الدنيا على كل قلبه واستحوذت على عقله وفؤاده، لا يبالي بكسب محرم، ولا بارتكاب الآثام والذنوب، بيته قد تخبَّث بوجود المفسدين الفاسدين فيه الذين يهدمون في بيته الفضيلة، ويؤصلون فيه الخنا والرذيلة، وذلك من خلال تلك القنوات التي يدع ولده أو ابنته في سن المراهقة ليشاهدوا أقذر المشاهد، وليستمعوا إلى كل سفيه ساقط، ستفاجأ أيها الغافل بفساد عريض في أخلاق أولادك؛ وأنت السبب، هذه صورة من الغفلة تتكرر كثيرًا في الواقع إنك إذا الْتَفَتَّ من حولك ترى في الناس حرصًا عجيبًا على الشهوات، وانهماكا مريبًا في اللذات، بل ترى الفجور الواضح في أفراحهم، وثياب البنات في خروجهن إلى الشوارع والطرقات، تلمح من حولك من يأكل الربا علنًا، ومن يتعاطى الرشوة جهرًا، يا لها من غفلة!! انظر إلى هذا المسلم الموحد لله الذي يغرق في غفلة فيمزق أعراض المسلمين بلسانه، ولا يتقي الله في جيرانه، بل يخادع ويكذب، ويكيد ويمكر من أجل دنيا فيا لها من غفلة!! كسبه حرام، ونفسه غارقة في الآثام، وقلبه نائم وطرفه يقظان أو قل قد مات قلبه وهو لا يشعر.

تأمل حال هذا الغافل تراه يحقد ويحسد، ينتقم ويظلم، يقضي ساعات طويلة من عمره أمام المباريات التي لا تنفعه في دينه ولا في دنياه، يقضي الساعات الطويلة من حياته ومن شبابه في مشاهدة المسلسلات واستماع الحكايات والفكاهات، والمعاكسات التليفونية، وخيانة المسلمين في أعراضهم واتباع عوراتهم، يا غافل أفق فوالله لتندمن على كل دقيقة مضت من حياتك في غير طاعة، أين أنت من صلاة الصبح؟! أين أنت من ذكر الله؟! منذ متى لم تفتح المصحف؟! منذ متى لم ترفع يديك بالدعاء؟! منذ متى لم تعد مريضًا أو تصل رحمًا؟! ومنذ متى لم تصل الوتر ولا قيام الليل؟! إنها الغفلة، إنه نوم القلب وإن كانت العين يقظانة!! أخي هل أنت كذلك؟ هل تجد في قلبك هذه الغفلة؟! إن كنت كذلك فهيا بادر وانهض من غفلتك، قم من رقدتك قبل فوات الأوان، استيقظ قبل أن يقال مات فلان، ولن ينفعك حينئذٍ ما سلف وكان من الذنوب والعصيان، وقد ذهبت عنك لذاتك، وانقضت حياتك، وصِرْت من ندم إلى ندم، ومن حسرة إلى حسرة، وقاني الله وإياك شر الغفلة، وما تلحقه من حسرات في الأخرى.

## خطر الغفلة

الغفلة إخوتاه، حجاب عن الله، وحرمان للمرء من لذة الإيمان، إنها سكرة تعمي، وسرطان يهلك ويُردي، قالوا في تعريف الغفلة: هي إبطال الوقت بالبطالة، وقالوا: هي السهو وفقد الشعور بما حقه أن يشعر به ومتابعة النفس على ما تشتهيه[1].

والغافل بليد الحس خبيث النفس، أعمى القلب، لا تزال تأتيه الآيات والعظات وهو لا يعقل ولا يفيق، لاتزال تتعدد أمامه الزواجر وتأتيه الحجج وهو معرض غافل، فلا يزال في غفلته حتى يعاقب بما هو أشد منها فإن الغفلة في حد ذاتها عقاب، لكن حين يستمرئ الغفلة ويرضاها ويستحبها؛ يأتيه العقاب المؤلم المهين في الدنيا والآخرة فينتقم الله منه ويعذبه ويدخله نار جهنم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) انظر في ذلك: «نضرة النعيم» (١١/ ٥٠٩٩) ط دار الوسيلة.

وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨]، ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ أي: ركنوا إليها وجعلوها غاية أمرهم ونهاية قصدهم؛ فسعوا لها، وأكبوا على لذاتها وشهواتها بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها؛ فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست بدار ممر يتزود فيها المسافر إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفَّقون ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾، فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية النفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للغفلة والإعراض عن المدلول المقصود أولئك الذين هذا وصفهم ﴿ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي[(١)].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عمن استحكمت غفلتهم واشتد إعراضهم: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

الغافل تائه القلب، وجود قلبه كعدمه؛ لأن القلب خلق ليعبد الله ويخشاه، ويحبه ويرجوه، وكما أن العين خلقت لتبصر، وكما أن الأذن خلقت لتسمع، فإن القلب خلق ليفقه الحق ويبصر الهدى، فإذا عُطِّلَ عن وظيفته التي خلق من أجلها فما قيمته إذاً؟! إن هذا الغافل يكون حينئذٍ أضل من الأنعام والبهائم؛ لأن هذه الدواب تعلم لماذا خلقت، وقد فطرت على التسبيح بحمد الله، أما هذا الغافل فهو أخس منها وأحط شأنًا قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

كثير من الناس أعماه ماله، أعماه منصبه، أعمته دنياه عن العبودية لله جَلَّجَلَالُهُ، ولا يزال هذا الغافل في غفلته تمضي عليه السنون وتزداد غفلته، ثم يؤثر ظلمة الغفلة على نور الحق، ويظل كذلك في تيهه وعماه حتى يعاقب بعقاب خطير وعذاب شديد، وهو أن

(١) «تفسير السعدي» [٤٠٠].

يُطْبَعَ على قلبه، فإذا طُبِعَ على القلب فقد خسر كل شيءٍ، وصار من الهالكين المعذبين، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٩].

ويعاقب الغافل بالصرف عن الحق؛ فلا يفهم كلام الله، ولا ينتفع بالعظات، تراه يؤثر اللهو واللعب على الصلاة والطاعة، تراه يؤثر الفجور والفسوق على التقوى والصبر عن الحرام فيعميه ضلاله ويرى الباطل حقًا والحق باطلًا وتلتبس عليه الأمور ويسير في الدنيا على غير بصيرة، والسبب غفلته وإعراضه التي عوقب بها فصار حائرًا خاسرًا وهو لا يدري، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، إن ثمرة الغفلة مُرَّةٌ وعاقبتها أليمة، فإياك والغفلة، احْذَرْهَا، وإذا وقع في قلبك نوع غفلة فسارع بطردها وإخراجها من قلبك بعظة تسمعها، أو بآيات تتلوها، أو بركعتين تصليهما، أو بدعاء تتضرع به إلى ربك؛ حتى تحرس القلب من التمادي في الغفلة والاستمرار فيها فتنزل عليه حينئذٍ تلك العقوبات على قدر ما فيه من غفلة؛ ولهذا حَذَّر الله عَزَّوَجَلَّ عباده من الغفلة ونهاهم عنها فقال تعالى مخاطبًا خير خلقه رسول الله محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأُمَّتُهُ تبع له في ذلك فالأمر له أمرٌ لأمته ما لم يخصه دليل، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

لا تكن من الغافلين فتسيء إلى جيرانك، وتخون المسلمين في أعراضهم، لا تكن من الغافلين؛ فالغفلة تملأ حياتك بالغم والكدر والظلام، لا تكن من الغافلين فتمكث الساعات الطويلة أمام الإنترنت وتقضي عمرك في لعب ولهو، لا تكن من الغافلين فالغفلة تملأ صدرك بالوساوس والهواجس، وتملأ بيتك بالشياطين فعن جابر بن

عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، و إذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء**»(١).

لا تكن من الغافلين؛ فالغافلون بعيدون عن الله لا يحبهم ولا يقربهم إليه، بل يكون بينهم وبين الله وحشة وذلك بسبب تلك الغفلة الجاثمة على الصدور، المسيطرة على العقول، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد الذكر، أنه يورث القرب من الله فعلى قدر ذكره لله عَزَّوَجَلَّ يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه، ويقول: الذكر يورث العبد الهيبة لربه عَزَّوَجَلَّ، وإجلاله لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه، ويقول: الذكر يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فإن الغافل بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ وحشة لا تزول إلا بالذكر(٢).

وإلى شبابنا وإخواننا الذين يقضون أوقاتهم في اللهو والغفلة، ويقضون مجالسهم في الكذب والفحش والسخرية والسب أقول: اتقوا الله، وغَيِّروا مجالسكم بطاعة الله، ليكن فيها ذكر الله، ليكن فيها الموعظة الحسنة والكلمة الطيبة والآية الكريمة والحديث النبوي الذي يُحْدِثُ في القلوب إيمانًا وتقوى، لتكن مجالسكم حجة لكم لا عليكم، ولتزدادوا بتلك المجالس إيمانًا بالله وقربًا منه جل في علاه، إن مجالسكم إذا كانت عامرة بالذكر حفتها الملائكة وذكركم الله فيمن عنده، وأثنى الله عليكم عند ملائكته، أما إذاكانت مجالسكم مظلمة مملئة بالإثم والفجور، والكذب والزور، فإن الشياطين تجالسكم، وتفرح بكم ويزيدونكم ضلالًا بالوسوسة في صدوركم، فَهَلَّا جعلتم مجالسكم عامرة بذكر الله؟!

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٠١٨].

(٢) «الوابل الصيب» ص[٦٢-٦٣] ط الريان.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين؛ فليتخير العبد أعجبها إليه وأولاهما به فهو مع أهله في الدنيا والآخرة(١).

ويبين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الغفلة سبيل الشقاء وسبب الحرمان والبلاء، وأن العافية كل العافية في اليقظة والانتباه، وكثرة ذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَسْعَدُ الذَّاكرُ بذكره، ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أينما كان، والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته، ويشقى به مُجَالِسُه(٢).

## حقيقة اليقظة وضرورتها

أول مرحلة في السفر إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ أن يستيقظ القلب من غفلته، وأن يفيق القلب ويفهم الحقيقة التي خلق من أجلها، وأن يبصر الحق ويراه بعد أن عمي عنه وضل عنه وتاه، اليقظة أن ينهض القلب من رقدة الغفلة، وأن يتخلص من ورطة التيه، ويصير القلب حيًا بصيرًا يؤثِرُ الحق على كل ما سواه قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وحياة القلب أن يفهم معنى الحياة، وحقيقة العبودية لله؛ فيتغير المرء ظاهرًا وباطنًا؛ وينعكس نور القلب على نور الوجه، وكم بين الغافل واليقظ من فرق عظيم، فرق كالفرق بين الحي والميت، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف اليقظة: أول منازل العبودية اليقظة، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين(٣).

وانزعاج القلب قلقه وانتباهه وكأنه انفتحت فيه عين رأى بها حقيقة الدنيا وحقارتها وزوالها، وحقيقة الآخرة وعظمتها وبقاءها، وخطورة الأهوال وشدتها يوم

---

(١) «الوابل الصيب» ص[٦٥] ط الريان.

(٢) السابق ص [٦٥].

(٣) «تهذيب المدارج» ص[١٠١].

القيامة وثمرة العصيان المُرَّة ومآل العصاة في الآخرة؛ فيتناءى عن دار الغرور، وتعظم رغبته في الجنة وما فيها من نعيم وسرور وحبور، فيبذل أنفاسه وكل ما يملك من طاقة لينال مراده ويصل إلى مناه، فيعيش الدنيا كأنه غريب عنها، راحل منها، وتلك هي الحقيقة التي يجب أن تستقر في كل قلب حي سليم، يقول ابن القيم عليه رحمة الله: ولله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها وخطرها وما أشد إعانتها على السلوك، فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمَّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي جاء منها، واعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة قلبه نائم وطرفه يقظان فصاح به الناصح وأسمعه داعي النجاح وأذن به مؤذن الرحمن: «حي على الفلاح»، فأول مراتب هذا النائم اليقظة والانتباه من النوم، وقد ذكرنا أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه، وكأنها القومة المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]، فالقومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة والنهوض من ورطة الفترة وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه وأول أنوارها لحظ القلب إلى النعمة على اليأس من عدِّها، والوقوف على حدِّها، والتفرغ إلى معرفة المنة بها والعلم بالتقصير في حقها.

وهذا هو موجب اليقظة وأثرها، فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنار قلبه برؤية نور التنبيه؛ أوجب له ملاحظة نعم الله الظاهرة والباطنة، وكلما حَدَّق قلبه وطرفه فيها شاهد عظمتها وكثرتها؛ فيئس من عدها والوقوف على حدها، وفرغ قلبه لمشاهدة منَّة الله عليه بها من غير استحقاق الاستجلاب لها بثمن، فتيقن حينئذٍ تقصيره في واجبها وهو القيام بشكرها، فأوجب له شهود تلك المنة، والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم واللهج بذكره وتذكر الله وخضوعه له، وإزراءه على نفسه حيث عجز عن شكر نعمه فصار متحققًا بـ «**أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر**

الذنوب إلا أنت»[(١)]، وعلم حينئذٍ أن هذا الاستغفار حقيقة بأن يكون سيد الاستغفار، ويعلم حينئذٍ أن الله لو عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، وعلم أن العبد دائمًا سائر إلى الله بين مطالعة المنة ومشاهدة التقصير، وهذا اللحظ يؤدي به إلى مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها والتشمير لتداركها، والتخلص من رِقِّها، وطلب النجاة بتمحيصها[(٢)]، وكلام ابن القيم هذا كالزهرة التي تشم وتستشعر لا أن تقطع وتعصر، لأنه كلام عالم مجرب عاش المعاني الإيمانية فأسكب على الكلام نورًا من قلبه، فخرج الكلام نورًا على نور يستشعره من ردده وتأمل فيه، والمعنى الذي أريد أن ألتقطه سريعًا من كلام الشيخ أن اليقظة تعني انتباه العبد من نوم الغفلة؛ فيرى نعم الله عليه وإحسان الله إليه، ويرى في المقابل معاصيه وجنايته، فينكسر قلبه ذلًا لربه ويدرك كم هو فضل الله عليه وكم هي منة الله عليه، فيزداد حبًا لله ولهجًا بذكره، ويكثر حينئذٍ من الطاعات والقربات ويتخلص من المعاصي التي تعوقه وتعرقله عن القرب من الله وتحقيق العبودية له جَلَّجَلَالُهُ، إنه يصير بعد هذه اليقظة إنسانًا جديدًا بقلب جديد، تختلف نظرته للأشياء عن ذي قبل، ويصوغ حياته كلها بالعبودية لربه، قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٣٨].

وجدير بالذكر في هذا المقام قول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: كم قد رأينا ممن آثر شهوته فسلبت دينه فليعجب العاقل من التصفح لأحوالهم كيف آثروا شيئًا ما أقاموا معه وصاروا إلى عقاب لا يفارقهم، فالله الله في بخس العقول حقها، ولينظر السالك أين يضع القدم، فرب مستعجل وقع في بئر بوار، ولتكن عين التيقظ مفتوحة؛ فإنكم في صف حرب لا يدري فيه من أين يتقي النبل فأعينوا أنفسكم ولا تعينوا عليها[(٣)].

(١) رواه البخاري [٦٣٠٦].
(٢) «تهذيب المدارج» ص [١٠١-١٠٢].
(٣) «صيد الخاطر» ص [٢١٢].

## أسباب اليقظة

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تفكرت في سبب هداية من يهتدي، وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته، فوجدت السبب الأكبر اختيار الحق عَزَّوَجَلَّ لذلك الشخص، كما قيل: إذا أرادك لأمر هيأك له، فتارة تقع اليقظة بمجرد فكرٍ يُوجبه نظر العقل؛ فيتلمح الإنسان وجود نفسه فيعلم أن لها صانعًا، وقد طالبه بحقه وشكر نعمته وخوف عقاب مخالفته، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر، ومن الناس من يجعل الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذا السبب الذي هو الفكر والنظر سببًا ظاهرًا إما من موعظة يسمعها أو يراها فيحرك ذلك السبب الظاهر فكرة القلب الباطنة[1].

أيها الإخوة، إن لليقظة أسبابًا تحدثها وتوجدها بإذن الله جَلَّجَلَالُهُ، إذا وقع سبب من تلك الأسباب انقدح في القلب حقيقة اليقظة ومعناها، وانتفض القلب من غفلته ونومه ومن هذه الأسباب ما يلي:

### ١- تفكر وتأمل:

قد تأتي اليقظة من مجرد تفكر القلب في معنى الحياة أو النظر في عجيب صنع الله أو النظر في العواقب ومآلات الأمور، يفكر في حال الناس من حوله يرى عبرًا توقظ قلبه وتقلق فؤاده فهذا حلَّت به الأمراض وصار طريحًا في فراشه بعد طول سلامة ونعيم، وهذا حلَّت بماله آفات فأهلكته وأصبح يُقلِّب كفيه حسرة على هلاك ماله، وهذا شاب أُخذ في زهرة شبابه فحمل على الأعناق إلى القبور، وهذا عاصٍ خائن فُضِحَ وصار عبرة للمعتبرين، كل ذلك وغيره يُحْدِثُ في قلب العبد يقظة لو تأمل وتدبر وعقل وفهم ما يدور حوله من عبر في حياة الناس وواقعهم، وقد تكون اليقظة بسبب فكر في الآخرة وما فيها من أهوال وجنة ونار ووقوف بين يدي الله جَلَّجَلَالُهُ في يوم كان مقداره خمسين

(١) «صيد الخاطر» ص[٣٧١].

ألف سنة، وكم من الناس استيقظ من غفلته لما رأى يوم القيامة في منامه فقدح ذلك في قلبه يقظة وانتباهًا.

**٢- حادث مؤلم أو مشهد مؤثر:**

قد تقع اليقظة بسبب رؤية حادث يهز الأعماق ويزلزل القلب، فيدرك قرب الأجل، وأن حياته قد تنتهي في لحظة واحدة، فهذا ممثل مهرِّج يموت على خشبة المسرح فجأة، وهذا لاعب يسقط أمام الناس ميتًا، وهذا رجل رفع الطعام إلى فمه ليأكله فجاء القطار فمزق جسده كما في حادثة قطار كفر الدوار، وهذا رجل يمشي على الرصيف بعيدًا عن السيارات فينفلت «أوتوبيس» عن مساره الذي كان فيه ويصعد إليه فجأة ليمزق جسده وينهي حياته في لحظة، وهذا رجل حمل عروسه في ليلة الزفاف ورفعها فوق سور لأحد الكباري فوق النيل فانفلتت منه وسقطت في الماء، وهذه سيارة أجرة «بيجو» تحمل سبعة ركاب تمر بجوارها شاحنة كبيرة وتجر وراءها مقطورة فظن السائق أنه ليس وراء الشاحنة شيء فألصق سيارته فجأة بمؤخرة الشاحنة فإذا بالمقطورة التي تجرها تسوِّى تلك السيارة بالأرض وتتناثر الأشلاء والدماء، وفَقَدَ كل أولئك حياتهم في لحظة، وهذه سيارة أجرة «ميكروباص» تمشي فوق كوبري أكتوبر في القاهرة فتسقط من فوقه ثم تنفجر بمن فيها فيموتون في طرفة عين، فإذا رأى الإنسان مشهدًا كهذه المشاهد وغيرها مما تؤلم القلب وتُشْعِرُ بأن الأجل قد يكون قريبًا جدًا، فيفزع من غفلته، ويستيقظ من رقدته، ويقبل على طاعة ربه، وقد رأيت بعض الناس بدأ في المحافظة على صلاة الجماعة فجأة، بل وعلى دروس العلم فسألته فأخبرني أنه رأى حادثًا اقشعر له جلده فسارع بالرجوع إلى ربه، لكن المهم عندئذٍ المحافظة على إشراقة هذه اليقظة وتعاهدها بالتثبيت والوعظ والتذكير، وعوامل زيادة الإيمان؛ حتى لا يعود إلى سالف حاله مرة أخرى.

**٣- موعظة مؤثرة:**

قد يكون سبب اليقظة موعظة صادقة تصل إلى شغاف القلب فَتُحْدِثُ فيه يقظة وإفاقة، وهذا زاذان الكندي الذي اجتمع مع أصحابه الفساق على شراب محرم وغناء وكان هو يضرب بالعود ويغني وقد كان حسن الصوت، فمر بهم عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوقف عليهم وقال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة القرآن، فكانت هذه الكلمة هي قبس النور الذي نفذ إلى قلبه فأفاق وتاب إلى الله وصار من العلماء الذين أخذوا العلم بعد ذلك عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحدثني أحد الدعاة أنه دُعِيَ لإلقاء مجموعة من المحاضرات في بلد من البلاد ذكر أن الذي استقبله ودعاه كان من أفسد الناس، يرتكب الكبائر، ويظلم ويفجر ويفسق، وبينما هو يقلب القنوات بما يمسى «الريموت كنترول» إذ ظهرت صورة لشيخنا الشيخ يعقوب حفظه الله وإذا به يقول: أنت متى سوف تتوب؟! قال: فتعجبت وتلفت يمينًا وشمالًا قال: فقال الشيخ: لماذا تلتفت أنا أقصدك أنت أخبرني متى ستتوب؟! حتى متى تبقى في غفلة حتى متى تعصي الله قال: فشعرت أن الكلام خطاب لي، فتبت من ساعتها، وأخذت على نفسي عهدًا أن أعمل في مجال الدعوة حتى أثبت على طاعة ربي، وسمعت الشيخ القدوة الحويني حفظه الله أنه بينما كان يلقي محاضرة بالقاهرة مرت من أمام المسجد راقصة فعطشت فالتفتت فإذا بثلاجة للماء أمام المسجد، فنزلت لتشرب فسمعت حديث الشيخ وكلامه المؤثر الآسر فوقفت مكانها تستمع حتى أنهى محاضرته فأرسلت إليه بقصتها وأنها تريد أن تتوب إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ فتابت وتزوجت واستقامت على الطاعة.

وسمعت الشيخ القدوة محمد حسان حفظه الله يذكر أنه كان يلقي محاضرة في بعض القرى عن وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان في تلك القرية ثلاثة من تجار المخدرات خرجوا ومع كل واحد منهم قطعة كبيرة من المخدرات، فخرجوا ليهرِّبوا ما معهم فرأوا أن الناس يتوافدون من خارج القرية بأعداد كبيرة فسألوا: ما الخبر؟ قالوا: هناك محاضرة

لبعض الدعاة فقالوا: فرصة نختبئ بين هؤلاء حتى يدخل الليل ثم نخرج فنكمل المهمة ولما جلسوا في المسجد يستمعون تأثروا وبكوا وقام كل منهم بوضع ما معه من المخدرات في عين المرحاض، كل لا يدري عن صاحبه أنه فعل ذلك، فلما التقوا حَدَّث كل واحد بما صنع، فاستقاموا على الطاعة وأخبروا الشيخ بقصتهم وما وقع لهم.

هذه أمثلة قليلة تبين أن الموعظة الصادقة تصل إلى شغاف القلب فتوقظه بإذن الله من غفلته.

### ٤- تجرع لمرارة مرض:

قد تحدث اليقظة نتيجة لإصابة بمرض، وتجرع لمرارته؛ فيرتجف القلب، ويشعر الإنسان بمدى ضعفه وعجزه، وقربه من الآخرة فيفيق حينئذٍ من غفلته، إن كثيرًا من الأصِحَّاء مصدر كبره صحته وقوته، وسبب غفلته ما هو فيه من عافية، فإذا مرض انكسر وعرف ضعفه، واستشعر حقيقة حجمه، كم من ظالم ما ارتدع عن ظلمه إلا بعدما أنهكه المرض، فهتف يتضرع إلى ربه نادمًا على ما فعل ورجع إلى الله وتاب إليه، سألت أحد الإخوة عن ظالم من الظالمين كان يؤذيهم ويمكر بهم سألته: هل لازال على قيد الحياة؟ قال: رحمه الله قد مات قلت: أراك تدعو له من قلبك قال: نعم، فإنه قبل أن يموت اشتد مرضه وندم على ما فعل فكنا نذهب إليه لنزوره فيقول: أنتم على الحق فاثبتوا.

وأعلم أنا عن أحد الناس أنه كان شديد العداء للسنة ومظاهرها، ويحاول أن يثير الكلام في أي مكان ليستهزئ بأهلها، ويجادلهم كالمصارع الذي يريد أن يُسْقِطَ كل من أمامه، ولما حل به المرض ترك كل ذلك، وصار من أكثر الناس حفاظًا على الصلاة في المساجد التي تتمسك بالسنة، وإذا لَقِيَ أحدًا من المتمسكين بها هَشَّ له ودعا له بالبركة والحفظ.

نعم فالمرض يكسر الطغيان ويهدم الجبروت ويقضي على الكبر ويغرس في الإنسان نوعًا من الذل، ويعطي العبد ومضات من اليقظة لعله يستفيق من غفلته.

### ٥- موت حبيب أو صديق أو قريب[١]:

قد يكون سبب اليقظة موت حبيب كان المرء يجالسه ويحادثه ويذهب ويجيء معه، وفجأة يفقده، أين هو؟! صار ترابًا في تراب فيهزُّ ذلك الموقف أعماقه، ويزلزل مشاعره، ويحدث في القلب ما يشبه الصدمة الكهربائية التي تبعث فيه انتباهًا ويقظة، وهذا كثيرٌ مُشَاهدٌ في الواقع وكم في الموت من عبر.

ولله در القائل:

فلو أنا إذا متنا تُرِكْنَا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بُعِثْنَا ... ونُسْأَلُ بعده عن كل شيء

ولله در القائل الآخر:

قل للمفرِّط يستعِدُّ ... ما من ورود الموت بُد
قد أخلق الدهر الشباب ... وما مضى لا يُسترد
فإلى متى شغل الفتى ... في لهوه والأمر جد

## صور من اليقظة

وهذه صور لليقظة تترجم معناها، وتوضح حقيقتها ومقتضاها، ومن هذه الصور، ما وقع للفتية أصحاب الكهف حينما تفكروا في تلك الأصنام التي تُعْبَدُ من دون الله، وقال كل واحد منهم: كيف أعبد صنمًا من حجارة لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، فخرجوا من بلدهم حينما توافقت قلوبهم على هذه اليقظة من ورطة الشرك، وحدوث التوحيد والإيمان في قلوبهم، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن هذا ما جرى لأهل الكهف، قال تعالى: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، وفي التفسير أن كل واحد منهم أُلْقِيَ في قلبه يقظة فقال: لابد لهذا الخلق من خالق، فاشتد كرب بواطنهم

(١) هذه العناوين مستفادة من شرح الشيخ يعقوب حفظه الله لـ«مدارج السالكين».

من وقود نار الحذر؛ فخرجوا إلى الصحراء، فاجتمعوا عن غير موعد، فكل واحد يسأل الآخر ما الذي أخرجك؟ فتصادقوا[(١)].

وهذا الحسن البصري، يدخل على رجل وهو في سياق الموت، فلما رأى ما يعالجه وما يعانيه من سكرات الموت، وبعد أن دُفِنَ الرجل رجع الحسن إلى بيته، فقال له أهله: الطعام يرحمكم الله، فقال: يا أهلاه عليكم طعامكم، فلقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

وهذا داود الطائي، يذكر عنه ابن قدامة وغيره أنَّ بَدْءَ توبته أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

**مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ... لقاؤك لا يرجى وأنت قريب**

**تزيد بِلَىً في كل يوم وليلة ... وتسلى كما تبلى وأنت حبيب**

قال أبو نعيم الفضل بن دكين: قدم داود من السواد ولا يفقه، فلم يزل يتعلم ويتعبد حتى ساد أهل الكوفة وقال أيضًا عنه: كان داود يشرب الفتيت، ولا يأكل الخبز، وقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية[(٢)].

وهذا توبة بن الصِّمَّة كان محاسبًا لنفسه، فحسب فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي واحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: ياويلتا ألقى المليك بواحد وعشرين ألف ذنب، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب، ثم خَرَّ مغشيًا عليه فإذا هو ميت فسمعوا قائلًا يقول: هنيئًا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى[(٣)].

وهذا دينار العيَّار كانت له أم تعظه ولا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة كثيرة العظام، فأخذ منها عظمًا نخرًا، فانفت في يده، ففكر في نفسه، وقال لنفسه: ويحك! كأني

(١) «صيد الخاطر» ص [٣٧١].

(٢) «التوابين» لابن قدامة المقدسي ص [١٣٣] ط دار الفجر.

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ١٩٦-١٩٧) ط دار المعرفة.

بـك غـدًا قد صار عظمك هكذا رفاتًا والجسـم ترابًا، وأنا اليوم أقـدم على المعاصي؛ فندم وعزم على التوبة، ورفع رأسـه إلى السـماء وقال: إلهي، إليك ألقيـت مقاليد أمري فاقبلني وارحمنـي، ثم مضى نحو أمـه متغير اللون، منكسر القلب، فقال: يا أمـاه، ما يُصْنَعُ بالعبد الآبـق إذا أخذه سـيده؟ فقالت: يخشـن ملبسـه ومطعمه ويغل يده وقدمه، فـكان إذا جنَّه الليـل أخذ في البكاء والعويل، ويقول لنفسـه: ويحك يا دينار، ألك قوة على النار؟! كيف تعرضت لغضب الجبار؟! فقالت له أمه في بعض الليالي: ارفق بنفسك فقال: دعيني أتعب قليلًا لعلي أستريح طويلًا؛ إن لي موقفًا طويلًا بين يدي رب جليل، ولا أدري أيؤمر بي إلى الظل الظليل أو إلى شر مقيل، إني أخاف عناءً لا راحة بعده وتوبيخًا لا عفو معه[1].

وهـذا رجـل كان مـن المتعبدين المتهجديـن اجتمع إليـه أهله وجيرانه فسـألوه أن يتـزوج فاشـترى جاريـة وكانت تغنـي وهو لا يعلم، فبينـا هو ذات يـوم في محرابه يصلي رفعـت الجاريـة صوتها بالغناء فطار لُبُّه، فرام ما كان عليه مـن العبادة فلم يُطِقْ، فأقبلت الجاريـة عليه فقالت: يا مولاي! قد أبليت شـبابك، ورفضت لـذات الدنيا أيام حياتك، فلو تمتعت بي، فمال إلى قولها، واشـتغل باللذات عن التعبد، فبلغ ذلك أخًا له كان يوافقه عـلى العبادة فكتب إليه: بسـم الله الرحمن الرحيم، من الناصح الشـفيق والطبيب الرفيق إلى من سُـلِبَ حلاوة الذكر والتلذذ بالقرآن والخشـوع والأحزان، بلغني أنك اشـتريت جارية بعت بها من الآخرة حظك، فإن كنت بعت الجزيل بالقليل، والقرآن بالقيان، فإني مُحَـذِّرُك هادم اللذات، ومنغص الشـهوات، ومبتـم الأولاد، فكأنه قد جاء بك على غرة؛ فأبكـم منك اللسـان، وهدم منـك الأركان، وقرب منك الأكفان، واستحوشـك الأهل والجـيران، وأحـذرك من الصيحـة إذا جثت الأمم لهـول ملك جبار، فاحـذر يا أخي ما يحـل بـك من ملك غضبان، ثم طوى الكتاب وأنفذه إليـه، فوافاه الكتاب وهو في مجلس سروره، فغصَّ بريقه وأذهله ذلك، فنهض مبادرًا من مجلس سروره، وكسر آنيته، وهجر

(١) «التوابين» ص [١٥٩-١٦٠] باختصار.

جاريته، ثم استمر على الجد حتى لحق بالله، قال الذي وعظه: فلما مات رأيته في المنام بعد ثلاث فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: قدمنا على رب كريم أباحنا الجنة[١].

## حراسة اليقظة

إذا أشرق نور اليقظة في القلب وبدَّد سناه ظلمة الغفلة، فينبغي على العبد حينئذٍ أن يحافظ على ذلك النور باقيًا، وأن يحترس كل الاحتراس من المكدرات التي تدأب على جَرِّه مرة أخرى للغفلة، وليحترس من اللصوص الذين يجتهدون من أجل رده إلى الغفلة مرة أخرى، إن أصدقاء السوء، والركون إلى الدنيا، والتوسع في المباحات ومخالطة أهل الغفلة كل ذلك ينبغي أن يُجتنب، ومن أراد حفظ اليقظة في قلبه فليكثر وليُدِمْ على كثرة الذكر والتلاوة مع النظر في أحوال المرضى والمحتضرين، وسماع المواعظ الصادقة من العلماء الربانيين، وزيارة القبور والتفكر في الموت والآخرة، وديمومة الاستعاذة بالله من الغفلة.

إن اليقظ شديد الانتباه لمكايد عدوه إبليس، متيقظ دومًا لأساليب أهل السوء الذين يريدون أن يخلبوا لُبَّه وأن يسرقوا قلبه، وأن يحيلوا بينه وبين أسباب السعادة الحقَّة في الدنيا والأخرة، لا تلتفت إليهم، وامض في طريقك مستعينًا بالله متوكلًا عليه، إلهج بالدعاء والتضرع أن يلهمك ربك الثبات، وأن يكفيك شر كل ذي شر، واصبر قليلًا فإن الراحة الكبرى ليست في هذه الدار بل الآخرة خير وأبقى، كن يقظًا فَبَيِّن الحق بحق وانشر عقيدة التوحيد، وقف أمام البدع بقوة، وادحر المنكرات بصدق إيمانك وخالص نصحك، وصادق غيرتك، كن سيفًا للحق، واصدق الله يصدقك، وتوكل على الله يكفك.

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق [١٦٠-١٦١] بتصرف.